

مناظرة كلامية حلها أدبي ... ابن رشيق الأندلسي

Debate on Islamic Theology with a rhetorical solution ... Ibn Rašāīq al-andālūsī

د.ة. خديجة بنعياد¹، كلية الشريعة، فاس، المملكة المغربية . kh-univer21@hotmail.fr

Hadiġa Ben'ayād, University of fes, Morocco.

تاريخ النشر: 2023/02/26

تاريخ القبول: 2023/01/07

تاريخ الاستلام: 2022/11/21

الملخص:

يتناول المقال تداعيات قصة وردت ضمن سلسلة تحديات الإعجاز القرآني الثابت منذ نزوله إلى آخر الدهر، ولا يتعلق الأمر بالمحاولات الكلاسيكية الأولى في عصر النبوة والصحابة، وإنما يتعلق بإنتاج أدبي للحريري، طور منه ناقد نصراني تحديا حاسما لم يخطر ببال أحد من المسلمين، وطال بحثه عن جوابه من المسلمين لأن عدم الجواب عنه يضعف نظرية المعجزة، حتى كَلَم في ذلك الشيخ ابن رشيق الأندلسي، وقبل ابن رشيق التحدي، وأتى بحل السؤال وإثبات معجزة القرآن، بأداء ذهني عجيب، وتوارد على منواله عدد من العلماء.

يقف المقال عند نتيجتين مهمتين: التأكيد على المعجزة القرآنية فيما يتعلق بموضوع المناظرة، وتسجيل الكفاءة العلمية لابن رشيق الذي استلهم بيتا شعريا على مستوى بلاغي راقٍ وهو تحت ضغط قوانين المناظرة مع المخالف.

كلمات مفتاحية: الإعجاز؛ ابن رشيق؛ الحريري؛ البلاغة.

Abstract:

This article discusses the implications of a story that is located amongst the Quran series of challenges which prove its inimitability from its reveal to the last day. Actually, the point is not about the classical attempts, but it is about a literary production created by Al-Ĥārīrī, containing two verses which Al-Hariri challenged all people to imitate them, and here, a Christian critic took full advantage of the opportunity and developed from it a problematic challenge that never occurred to any muslim, through this issue, the article aim to study a new proof of the inimitable nature of the Holy Quran with a rarely repeated method.

Two important results are marked: confirming that the Quran is a real miracle by winning the challenge of the Christian critic, and revealing the scientific competence of Ibn Rašāīq, who was able to compose poetry verse of high rethorical level under the debate rules pressure.

Keywords: inimitability of the Quran; Ibn Rašāīq al-andālūsī; Al-Ĥārīrī; rhetoric.

¹ د.ة. خديجة بنعياد، kh-univer21@hotmail.fr.

مقدمة:

في يوم أندلسي بهيج، كان قد ثبت لمسلم على نصراني حق من الحقوق التي ينبغي أن تُوثق فيها الأقوال والادعاءات في الأماكن المعظّمة، سار ابن رشيق والشاهد الثاني مع النصراني إلى كنيسة من كنائسهم، ولما فرغوا من القضية، أتى قسيس من القساوسة إلى ابن رشيق وأخذ يستدرجه في الكلام ليعرض عليه إشكالا كلاميا يتعلق بقضية الإعجاز القرآني. وانطلاقا من هذه القصة التراثية يتساءل المقال: هل التحدي الذي تفوّق فيه القرآن في العصور الأولى ما زال مسجلا؟ هل يمكن أن يضاهي القرآن نصّ آخر في التحدي والفرادة؟

وأما أهداف البحث فتتنوع ما بين التحقق من قضية إعجاز القرآن الكريم بالعلم والواقع، وما بين التعريف ببعض مكنونات حضارتنا الإسلامية المتعلقة بحادثة مغمورة غير مشهورة، بالإضافة إلى تحليل ما ورد فيها من كفاءات ذهنية عالية، وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف انتهجت منهجا سرديا تحليليا، وقسمت المقال إلى مبحثين: تناولت في الأول منهما بيان قضية الإشكال المتعلق بالإعجاز القرآني، وخصصت الثاني لبحث حل القضية وأداء ابن رشيق فيه، كما ذيلت المقال بملحق وضعت فيه القصة بلفظها تقريبا للقراء؛ لأنها مذكورة في كتاب غير مطبوع لابن رشيق، ونقلها عنه الونشريسي في المعيار المعرب ولكنها مع ذلك غير مشهورة لأن كتاب المعيار طويل جدا ومتنوع المواضيع، وقد وردت القصة في آخره تقريبا.

1. المبحث الأول: الإشكال الكلامي

1.1 المطلب الأول: قضية الإعجاز القرآني:

نزل القرآن الكريم في زمن كان قد بلغ اللسان العربي مبلغا فريدا بين لغات العالم، وامتاز بالقوة والرشاقة والمرونة¹ والقابلية للتشكيل والإبداع الفني المدهش بكل سلاسة ودونما تعقيد ولا خفاء في المعنى. والمتأمل في تاريخ العرب يتفطن إلى أنّ نشأة العربية واشتدادها وتفوق أهلها في إتقانها كأنه كان تهيئة لتزول المعجزة ونصب التحدي².

كان من قوة العرب في لسانهم أن من عادتهم تحدي بعضهم بعضا في المساجلة والمقارضة بالقصيد والخطب، وكان ذلك من مفاخرهم ومما جُبلوا عليه³، فتحداهم القرآن بما يعهدون، وجاء متدرجا من معارضة القرآن كله، إلى عشر سور منه، ثم خفض مستوى التحدي إلى سورة واحدة، فأعرض المخالفون عن ذلك كله إلى هجاء رسول الله ﷺ ومعارضة شعراء أصحابه وخطباء أمته، وظل الأمر على ذلك طيلة العصر النبوي وامتد إلى العصور التي تليه⁴.

وفي هذا الموضوع يتحتم التنبيه إلى وجود محاولات ضعيفة في معارضة القرآن، أتى بها بعض المُعَادِينَ لمحمد ﷺ كمسيلم الكذاب، ولكن العقلاء لم يحفلوا بها، بل صارت مثار سخرية للمخالف والمؤلف من العلماء باللسان العربي⁵؛ ذلك أنّ كلام العرب محكوم بقوانين لسانية علمية وفنية ووجدانية، وبعد إتقانها يبقى لضروب كلامهم مراتب في القوة والجمال والسحر⁶، والمحاولات التي تستجيب للتحدي تُحكّم بنفس تلك القوانين والمراتب؛ وعليه، فالأمر أشبه بمخرج سينمائي رفيع المستوى يقيم تحديا، ثم يأتي هاوٍ واثق من نفسه ويصنع فيلما يعارضه به، فإنه بذلك يعرض نفسه للتحكيم من أهل الاختصاص، وإذا كان رفيعا كذلك ومتقنا فإن أمره سينتشر ولو في عصور أخرى، وأما تعرضه للسخرية ثم اندراسه وتلاشيهِ على مدى السنين مع كثرة المخالفين فإنه كاف في دحضه وواضح في ضعفه. ولا أصدق على هذا من موقف الوليد بن المغيرة حين سمع القرآن فعاد إلى قومه حيران مذهولا وقال: لقد سمعت أنفا كلاما ليس بكلام بشر، إن عليه لحلاوة، وإن له لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه⁷، فلا يعقل أن يكون مثل هذا الاعتراف مدحا مجانيا؛ لأنّه يتحدث عن الدّ أعدائه هو وبني قومه حينها، وإنما هو بلا شك معنيّ رآه وعرفه حتى اعترف به

2.1 المطلب الثاني: إشكال بيتي الحريري

لم يكن سؤال القسيس بسيطاً، ولا سائراً في الاتجاه الأصلي للتحدي، بمعنى أنه لم يدع أن أحداً أتى بكلام مثل سور القرآن في القيمة اللغوية والبلاغية، ولكن سؤاله مبني على كلام بشري اتفق له مثل ما للقرآن من التحدي والفردة، وهذا يفترض أن يؤهله إلى مقام الإعجاز - كالنص القرآني.

هذا النص المقصود هو بيتان للحريري مُنمَّقان رفيعان في المعنى وحَسَنان في البلاغة، وقد تحدَّى الحريري وذكر قبل عرضهما أنه لا يأتي أحد ببيت مثلهما. جاء ذلك في المقامة الحلبية، التي حكى فيها عن شيخ له صبيان، كان يطلب منهم إنشاد بعض الأبيات الشعرية، حتى قال لأحدهم: "أنشد البيتين المُطرفين، المتشابهي الطرفين، اللذين أُسْكنا كلَّ نافثٍ، وأَمِنَّا أن يُعَزَّزا بثالثٍ"⁸، فأنشدهما قائلاً:

"سِمَ سِمَةً تَحْسُنُ أَثَارُهَا وَاشْكُرْ لِمَن أَعْطَى، وَلَوْ سِمِسِمَهُ
والمكر - مهما استطعت - لا تأتيه لَتَقْتَنِي السُّودد والمكرمه"⁹

فهذان البيتان منظومان على وجهٍ حَسَنٍ بديعٍ، مع حُسْن معنهما، فإنهما مسجوعان¹⁰ وفيهما جناس مركَّب، أي في كل طرفٍ منهما يوجد نفس ترتيب الحروف، مع اختلاف المعنى، (سِمَ سِمَةً) (سمسمه) + (والمكر مَهْ) ما (والمكرمة)، وجمال السجع يكون باختلاف معناه بين الكلمتين المتشابهتين مع ضرورة خروجه عفويًا بلا تكلف:

فمعنى البيت الأول: سر في حياتك بطريقة أو صفة حَسَنَةٍ، ولا تنس الفضل بل كن ممتناً لمن أعطى وبذل، ولو كان مجرد حبة سمسم.

ومعنى البيت الثاني: في طريقك للمجد والسودد لا تسلك سبيل المكر والتحايل، مهما كنت تستطيع ذلك. ولما رأى الحريري أن هذين البيتين رفيعان في معنهما ونظمهما، مدحهما وأبلغ في المدح حينما اطمأن إلى أنه لا أحد سيستطيع تعزيزهما ببيت ثالث.

نعم، إنَّ لكل أحد أن يعلي من قدر أدبه وشعره، ويمتدحه كيفما يشاء، وليس هذا الذي يسأل عنه القسيس، وإنما موضوع السؤال: أنه لا أحد فعلاً عزز بيتي الحريري ولو ببيت واحد، وهذا ما التقطه القسيس وجعل يسأل عنه المسلمين واحداً تلو الآخر: فإذا أن يتحقق هزيمة التحدي، أو يرقى هذان البيتان لمرق الإعجاز، وبذلك يزاحمان النصوص القرآنية في أعظم صفة توصف بها.

ولأنَّ المعنى حساس للمسلمين، جعل القسيس يتحرز ويتأدب في كلامه مع ابن رشيق، ويقول له إني قد طال بحثي عن حل هذا الإشكال، وإنك أحق مني بمعرفة حلِّه، وإنه لا مناص من كسر تحدي الحريري، أو النيل من إعجاز القرآن، أو الادعاء بأن بيتي الحريري هذين معجزان كالقرآن ..

وهنا اشتد الحال، وقِيلَ ابنُ رشيق هذا التحدي الفريد، وعزم على إيجاد حله، فماذا فعل ابن رشيق؟ وكيف فعل؟

2. المبحث الثاني: الحل الأدبي

2.1. المطلب الأول: ابن رشيق والكفاءة العلمية العالية:

استبدت بابن رشيق عزيمة قوية للرد على القسيس والإسهام بجهد الشخص في المناقشة عن كتاب الله وحل إشكال القسيس العجيب، لكن ابن رشيق لم يكن قد خطر بباله أمر هذه المسألة من قبل، ولم ير في بيتي الحريري تهديدا لإعجاز القرآن، ولم يشغل نفسه برفع ذلك التهديد لأنه لم يتصوره أصلا، وهذا يعني: أن ابن رشيق لا يدري هل يوجد بيت زائد على بيتي الحريري أم لا. ولا يمكنه الفوز في المناظرة الكلامية بدون إثبات كسر هذا التحدي الذي أقامه الحريري ببيت منافس في المعنى والنظم والسلاسة والبعد عن التكلف، فقرر ابن رشيق أن يصنع بيتا بهذه الشروط ويكسر به تحدي الحريري بنفسه.

لكن ابن رشيق علم أنه لو أخذ مهلة من الوقت ثم جاءه بيت فهذا لن يكون متقبلا عند القسيس الحاذق، وأراد ابن رشيق أن لا يبين له مَنْ صاحب البيت الإضافي، لكي يحتفظ بالمقام العلمي مجردا بدون تدخل للانطباعات. ولكن أين هو البيت؟

إذا كان ابن رشيق ينوي تأليفه بدون انسحاب، فهذا يعني أنه سيشتغل وجها لوجه أمام القسيس، وبهذا يلجئه ضغط الوقت إلى تشغيل النظام الثاني من نظم التفكير¹¹، الذي يستهلك مجهودا ذهنيا عظيما.

وليس هذا وحسب، فإن القسيس لن ينتظره متأملا حتى يظفر ببيت، لأنه يرجو كسب المناظرة، فإنها مساجلة علمية لم تنقطع بعد بينهما، وهذا بالضبط ما كان يحصل: لقد قرر ابن رشيق أن يشاركه في الأخذ والرد بحسب قوانين المناظرة الصارمة كسبا للوقت، حتى تكون تلك الأسئلة العلمية وأجوبتها هي الفسحة التي يؤلف فيها البيت المنشود.. هذه الكفاءة العلمية المدهشة لم أستطع تجاوزها؛ واحترت في أنه لما كان يجيبه: هل كان يفعل ذلك بالنظام الثاني أم بالنظام الأول الآلي، لكن على كل حال فقد كان يبذل فيها جهدا ضئيلا مقارنة مع جهد استلهاهم البيت الشعري الخاص¹²، لقد استعمل ابن رشيق النظام الثاني للتفكير بشكل مكثف في هذا التجربة، وذلك للأسباب الآتية:

- ضغط الوقت¹³.

- الانتباه إلى مواضيع الأسئلة وأجوبة القسيس عنها، مع الانتباه إلى انتهائه من الجواب وبذل سؤال إضافي له في كل مرة.

- تفرغ خاطر لبيت شعري على درجة راقية في النظم والمعنى، خال من التكلف، ومناسب لتنسيقه مع بيتي الحريري.

- إخفاء كل مجهوده العقلي عن القسيس، حيث لا يرى منه إلا مشاركته في المناظرة الكلامية، مع أن تشغيل النظام الثاني للتفكير مجهد، ويفرض على صاحبه التوقف والفتات والتركيز بشكل لافت للانتباه¹⁴.. واحزروا ماذا! لقد صار البيت جاهزا!

2.2. المطلب الثاني: تأكيد فرادة الإعجاز القرآني:

استمر ابن رشيق يجيب القسيس من ناحية كلامية (أي من علم الكلام)، وفي كل جواب يقول له القسيس: هذا أخبرني به فلان، ولكنّه لا يكفي؛ لكذا وكذا وكذا، ثم يذكر له ابن رشيق جوابا آخر، وينقضه القسيس مجددا، حتى استنفد جميع أجوبة هذه المسألة بحسب ما تمليه قواعد المناظرة، ثم إذا به يقول له: ومع ذلك، فقد زاد بعض الناس بيتا ثالثا، وليس الأمر كما ظننت، وهنا اندهش القسيس وقال له: وأين هو؟ فقد سألت وأطلت البحث ولم أجد من ادّعاه! فقال ابن رشيق: بلى، لقد ذكر بعض الناس بيتا ثالثا وهو:

والمهر مهر الحُور وهو التُّقى بآدر به البُكرَة والمهرَمَة

تأمل القسيس البيت واستوعبه، وهشَّ إليه أصحابه وجعلوا يتفهَّمونه، فشرحه لهم، وكتبوه عندهم. فالجناس موجود في كلمتي (المهر مهر) (والمهرمه) في طرفي البيت. وأما المعنى فما أبهاه وما أرفعه؛ لأنه يفيد: أنَّك للفوز بالمعالي والمراقي (وشبهها بالزواج من الحسناء)، عليك ببذل خير مهر على الإطلاق، وهو التَّقَى في حياتك كلها. والبيت منسجم مع بيتي الحريري بروعة أخاذه؛ وكأنه يكمل البيت الثاني منه، الذي فيه النبي عن اتباع المكر لبلوغ السؤدد، ثم الأمر بالتزام التقوى عوضاً عن المكر، وأما تشبيه الفوز بالمعالي بالزواج من الحسناء فهو تحسين إضافي للبيت، لأنها استعارة¹⁵.

في حين أنها قد تبدو قصة هادئة؛ إلا أنها انطوت في وقتها على تحدٍّ مصيري يحبس الأنفاس شمل إظهار الإعجاز القرآني بفضل المجهود الحثيث لهذا القسيس، والكفاءة العالية لأهل النبل والعلم في تلك العصور العلمية المزدهرة، بحيث كان الجميع منضبطين بالأنظار العلمية على اختلاف توجهاتهم وأنماط عيشتهم .. واحتفظ القرآن بفردته في التحدي والإعجاز، كان موقفُ ابن رشيق مجهداً وخاض الغمار بمفرده، ولكنَّ التاريخ سجل لنا انتصارات أخرى زادت إلى بيتي الحريري أبيات إضافية عديدة، منها:

وَالْهَذْرَ مَهْ! دَعُهُ وَكُنْ نَاطِقًا بِالْقَصْدِ إِنَّ الْعَابَ فِي الْهَذْرَمَهْ

فالهدرُ: هو الكلام الرديء الذي لا يُعْبَأُ به¹⁶، وقوله: (مه!) اسم فعل بمعنى اسكت!، أي: دعك من الهدر، وكن ناطقاً بالقصد أي بالكلام الموزون على قدر الحاجة، لأنَّ العيب في الهدرمة، والهدرمة تطلق على التخليط في الكلام والسرعة فيه¹⁷. وهذا بيت من ضمن اثني عشر بيتاً مزيدة على الحريري ذكرها الشيخ أبو القاسم السهيلي (ت 518 هـ) متعجباً من ثقة الحريري بمنع الزيادة على البيت¹⁸

ومن ذلك أيضاً: أنَّ قوماً طلبوا من الشيخ عثمان البلطي (ت 599 هـ) أن يزيد على بيتي الحريري، فزاد خمسين بيتاً، ذكر الحموي منها ثلاثة عشر بيتاً¹⁹، منها:

مَنْ دَمَهُ أَهْدَرَهُ الْحُبُّ لَا غَرُّ إِذَا حَلَّتْ بِهِ مَنَدَمَهْ
أَسْلَمَهُ الْحُبُّ إِلَى هَلَكِهِ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا أَسْلَمَهُ!

أي: أهدر الحبُّ دمه فلا نعجب من حاله إذا نزل به الندم. أسلمه الحب إلى هلاكه من شدة توجعه على المحبوب، فإن نجا من هذا الهلاك بأعجوبة فهو حقاً محظوظ.

وأما ابن المتقنة (ت 577 هـ) فقد زاد بيتين آخرين، أنتقي منهما قوله²⁰:

فَمَهْ - إِذَا اسْتُجْدِيَتْ - عَنْ قَوْلٍ "لَا"، فَالْحَرْ لَا يَمْلَأُ مِنْهَا فَمَهْ

أي: كن أصيلاً معطاءً، و(مه عن قول "لا") أي لا تقل "لا" إذا استُجْدِيَتْ وطلب منك شيء؛ لأنَّ الحر لا يقول لا، ولا يملأ منها فمه²¹.

وروت لنا صفحات التراجم علامةً نابغة، زاد على نفس المنوال خمسين بيتاً²²، وأنشأ صاحب الذيل والتكملة مجموعة أبيات كذلك²³، وروي نحو هذا عن غيرهم²⁴.

خاتمة:

هذا، وقبل الانفصال عما نحن فيه، أثبت ما أثبتته المتخصصون للحريري من قوة عارضته وحسن صناعته، وبراعته وسلاسته وسمو معناه²⁵، ثم هو نفسه أفاد في آخر مقاماته أنها من اللغو واللغو المباح وسقط المتاع²⁶، وليست تحدياً جاداً.

ومع ذلك فالقسيس فقط لم يكن يعلم، أما المسلمون فلم يسكتوا عن بيتي الحريري وكسروا التحدي، لكن مواجهة القسيس لابن رشيق أفرزت - حقا - تحدياً من نوع آخر لشخص ابن رشيق، نجم عنه أداء ذهني رفيع المستوى جداً. قارن المقال أيضاً بين أداء ابن رشيق في المناظرة وهو منشغل في نفس الوقت باستلهم بيت شعري، وبين أداء محفظي القرآن في المساجد (بالطريقة المغاربة بالخصوص) لأنهم يعالجون محفوظات مختلفة المواضع في ظرف زمني واحد، ويتساءل: هل يمكن أن يتحقق مثل هذا الأداء في كل محفوظ (لو حظي بنفس الاهتمام) أم لا؟ وما هي الأسرار الابداعية في الطريقة المغاربة التي ترقى الحافظ إلى بلوغ هذه المرحلة من الإتقان؟ البحث في هذه الجزئية يمكن أن يفتح أمامنا آفاقاً جديدة أو معلومات جديدة لكفاءة أذهاننا ولقيمة حضارتنا كذلك.

هذا، وقد سرد السيوطي قصة بيتي الحريري وأن الناس أكثروا من التعزيز بثالث لهما، ولنشاط الحركة العلمية: أنشأ هو أيضاً بيتين لطيفين قال عنهما أنه لا يظن أن لهما ثالثاً²⁷، وهما:

مُنْبَرِي	شاع	ذِكْرُهُ	لَوْ يَكُ الْوَعْظُ مِنْ بَرِي
عَنْبَرِي	ضاع	نَشْرُهُ	لَوْ رويناه عَنْ بَرِي

وبهذا ينشأ تحد جديد في انتظار تعزيز بيتي السيوطي هذه المرة..

ملحق: قصة ابن رشيق والقسيس الفريدة بلفظها:

"وذكر أبو علي الحسين بن رشيق في كتاب الرسائل والوسائل قال: كتب بمدينة مرسية جبرها الله، أيام محنة أهلها بالدجن؟ الذي عصم الله تعالى من غوائله، وخلص من حباله، وكان قد ورد عليها من قبل طاغية الروم جماعة من قسيسهم ورهبانهم، شأنهم الانقطاع في العبادة - بزعمهم - ونظر العلوم، مشربون للنظر في علوم المسلمين وترجمتها بلسانهم برسم النقد، خيب الله تعالى سعيهم. ولهم حرص على مناظرة المسلمين وقصد ذمهم في استمالة الضغفاء، يأكلون على ذلك مال طاغيهم، ويستمدون به الجاه من أهل ملتهم، قطع الله تعالى دابرهم.

وكنيت في ذلك الوقت أجلس بين يدي والدي رحمه الله تعالى لكتب الوثائق وعقود الأحكام وأنا إذ ذاك لما بقل وجهي؟ فوجبت لمسلم على نصراني يمين في حق حكم عليه بها، وأمرت أنا وشاهد آخر بالحضور عليها ليتقاضاها المسلم منه على ما يجب، بحيث يعظم النصراني من دينه، فتوجهنا معهما إلى مجتمع أولئك الرهبان، بدار كان لهم فيها كنيسة يعظمونها، فلما فرغنا من قصدنا، استدعاني قسيس منهم، من بلاد مراكش، فصيح اللسان مدرك للكلام، معتدل في المناظرة وأخذ يستدرجني للمكالمة ويقول: أنت طالب ونبيه، وقد سمعت بوالدك وبك، وحدثني المسلمون عنكما بخير وعلم، وأنا أريد أن أكلّمك فيما لك فيه منفعة ولي، وأنت لست ممن تخاف أن يخدع بالباطل، ولا ممن يخفى عليه الحق ويعاند به إذا ظهر له، فاجلس معنا نأخذ في المسألة من المذاكرة، فأعجبني كلامه وتصرفه في الكلام العربي، فجلست معهم، وقعد إليّ منهم أربعة وهو أحدهم، وكأنهم تركوه للمكالمة، فأخذ معي في أمر المعجزة، أخذ متأدب مع الشارع صلوات الله عليه وسلامه، وذلك منه خوف أن ينفرنني ومكيدة يستميلني بها لسماع كلامه، وكنيت بحمد الله قد أحكمت شيئاً من أصول الدين مع والدي رحمه الله تعالى.

وقال لي: أنتم تقولون إن من أعظم معجزات نبيكم: القرآن العظيم الذي بأيديكم.

قلت له: نعم.

قال: وأنا لا أتكلم معك في غيره.

وأنتم تقولون: إن نبيكم تحدى به العرب قاطبة في أحفل ما كانوا من الفصاحة فعجزوا، وإن هذا النكتة هي أوضح نكت الإعجاز وأجلها وأبقاها على الدهر، بحيث يقف عليها المتأخر، كما وقف عليها المتقدم، ويستوي في التوصل إليها الخاص والعام.

قلت له: نعم.

قال: وأنتم تقرؤون فيه: {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ} [البقرة: 24] وذلك في آية التحدي ومعرض التعجيز، وتقولون: إن نفي المستقبل الذي في قوله: {ولن تفعلوا} وهو النص على أن ما كان من العجز عنه في الوقت باقي فيما بعد ذلك إلى باقي الدهر.

قلت: نعم.

قال: ثم لم يبق معارض واحد في الوقت، ثم مضت السنون والأحقاب، وانقرض لسان العرب الصحيح، واستولى عليه الفساد، أقمت الإعجاز وصح ذلك النفي المتقدم، ... وصدق الخبر الخبر، رأيت أنه لم يبق للمعارضة مظنة تقدير، وأن المتأخر في هذا حصل على ثلج اليقين من المتقدم.

فقلت له: أما هذا فلا أقول فيه إلا أن الأمر استمر على ما كان عليه أولاً، ولا يزيد المتقدم على المتأخر ولا المتأخر على المتقدم، والحق إذا ظهر من وجه واحد في وقت ما، لا تزيده كثرة الوجوه صحة، ولا تدفع عنه شبهة، ولكن هذا واقع في الوجود كما قلت، فما تريد أن تبني على هذا؟

فقال - تعالى الله عن قوله، ونزه الوحي الكريم عن تخييلاته - اسمع الآن ما أقوله، ولا تفهم عني أي أريد به أن أحداً عارض القرآن، أو أتى في ذلك بشيء يوقع في النفس احتمالاً - لا والله، لا أقول ذلك، ولا أدعي ما لم يقل به أحد من أهل ملتكم أو غيرها، ولكني أقول شيئاً آخر، افهمه عني، وتنبَّت فيه فإنه موضع نظر، في نفسي منه شيء، ولم أجد من أهل ملتكم أحداً يزيله عنها، على كثرة سؤالي عنه لكل من توسمت فيه المعرفة منكم. وذلك أن الكتاب المسمى بالمقامات قد أجمع أهل ملتكم على أن أهل الأدب عجزوا عن معارضته، وكل من تعرض لذلك لم يأت بشيء يقاربه، ولا يقع موقعه. ثم إن مؤلفه مع ذلك تحدى أهل اللسان قاطبة بشيء منها، رأى أنه لا يؤتى بمثله، وزاد إلى ذلك، بأن صرح بنفي الإتيان بمثله في المستقبل تصريحاً لا يمكن إنكاره، وذلك قوله في المقامة السادسة والأربعين: أنشد البيتين المطربين، المشتبهين الطرفين، اللذين أسكتا كل نافث، وأما أن يعززا بثالث، فأنشده:

سَمِ سمة يحسن آثارها ... واشكر لمن أعطى ولو سمسمة

والمكر مهما استطعت لا تأته ... لتنتقي السوداء والمكرمه

وقد مضت بعد الأعصار، وانقرضت الأجيال، فلم يأت أحد لهما بثالث كما قال، لا في عصره، ولا بعد عصره على كثرة درس الناس لها وتداولها في مجالس المذاكرة ومحافل الأمراء واشتهارها في الأمصار. فعلى ما تقرر أولاً - ووجدناه عند جمهوركم في حق القرآن مسلماً - ينبغي أن يكون ما أتى به الحريري أيضاً في هذا الموضع معجزة، وإن لم يُرد هو ذلك، ولا قصد هذا المقصد الذي نحن بسبيله، لكنه قد وقع ذلك في الوجود اتفاقاً، ووقع وقوعاً لا مرية فيه. وأنتم مع ذلك لا تقولون إنه نبي، ولا يمكنكم قول ذلك ولا أنا أريده، ولكن [ما] أريده أن هذا أمر قد وقع لمن حصل التسليم منكم فيه أنه غير نبي، فما الفرق بينه وبين ما كنا بسبيله أولاً؟ اللهم إلا أن نستعين على ذلك بقريضة أخرى، أو بقرائن من غير القرآن، فتكون حينئذ قد جعلت القرآن غير مستقل بإثبات نبوءة نبيكم، وليس هذا قول أيمنكم ..

وأخذ يقرر أشياء من هذا القبيل، يتحذر فيها من تنفير فيتأدب مع القرآن عند ذكره، ويعظم النبي ﷺ متى عرض له ذكراً، ويقول: النظر في هذا أحق عليك منه عليّ.

فأدركني - والله - انبعاثٌ عظيم للزيادة على البيتين لم أرَ أكد عليّ منه في الوقت، ولا أجم لذلك المخزي منها، فأخذت أبدي له الفرق بين المسألتين بطرائف البراهين الأصولية والأقاويل العلمية، وخاطري مشغول بالتفرغ للزيادة عليهما، وهو يقول في كل ما أقول له: قد سمعت هذا، وناظرني به فلان، فقلت له: كذا. وسمعت هذا الآخر، وقد ذكر هذا الآخر فلان في كتاب كذا، واعترضني فيه كذا كذا كذا، إلى أن يسر الله في زيادة بيت واحد.

فقلت له: ومع هذا فقد زاد الناس على البيتين ولم يغفلوا عنهما.

فقال لي: وأين هذا؟ فوالله ما رأيت أحداً ادعى هذا ولا ذكره يوماً قط.

فقلت له: أنا أذكر بيتاً ثالثاً لهما ولا أذكر الآن قائله (ولم أرَ أن أنسبه لنفسني في الوقت، لأنني قدّرت أنه إن فعلت ذلك لا يقع منه موقعاً مؤثراً)، ثم أنشدته:

والمهزّز مهزّز الحور وهو الثّقي ... بادر البكرة والمهزّز.

فلما سمعه وأعدّته عليه حتى فهمه، فكأنما ألقمته حجراً، ورأيت فيه من الانكسار لذلك ما لم أره عند سماع الحجج العقلية والمآخذ الأصولية، فأخذ في الثناء عليّ، وأخذ أصحابه يسألونه عن تفهيم ما قلته له، فأفهمهم إياه، وقيّدوا البيت، ولم أنفصل إلا وهم كالمسلمين في انقطاع شُبهتهم - قطع الله دابرهم²⁸.

الهوامش (الإحالات):

¹ المرونة تتيح للعربي تقليب نظم الكلام بين تقديم وتأخير وإيجاز وغير ذلك من ضروب البلاغة، بحيث يستطيع المتكلم نحت نُحْفٍ من الكلام. ونحو هذه المرونة نجدها في الحروف العربية التي يمكن معها رسم صور متكاملة كما هو معروف في فن الخط العربي.

² الرافي، إعجاز القرآن، دار التقوى - دار العلم والمعرفة، مصر، طبعة 1435-2014، ص 220.

³ الرافي، إعجاز القرآن، دار التقوى - دار العلم والمعرفة، مصر، طبعة 1435-2014، ص 236.

⁴ المذكور في هذه الفقرة مأخوذ من قوله شهيرة للجاحظ نقلها عنه السيوطي في: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى، الرسالة ناشرون، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1429-2008، ص 646-647.

⁵ قال القاضي أبو بكر الباقلاني: "فأما كلام مسيلمة الكذاب وما زعم أنه قرآن، فهو أحسن من أن نشتغل به، وأسخر من أن نفكر فيه، وإنما نقلنا منه طرفاً ليتعجب القارئ وليتبصر الناظر؛ فإنه على سخافته قد أضلّ، وعلى ركاكته قد أزلّ، وميدان الجهل واسع" الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة مصر، ص 156.

⁶ ولذلك توافقوا على مدح المعلقات واختصّوها - لقيمتها العالية - بتعليقها على بيت الله الحرام، بخلاف قصائد أخرى كثيرة، ورضوا جميعاً بهذا الحال.

⁷ "عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكانه رَقَّ له. فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم؛ إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا. قال: لم؟ قال: لِيُعْطَوْكُهُ؛ فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله. قال: قد عَلِمْتُ قريش أني من أكثرها مالا. قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له. قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيدته مني ولا بأشعار الجن؛ والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مُغْدِق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلَى، وإنه ليحطم ما تحته..." البيهقي، دلائل النبوة، اعتنى به: عبد المعطي قلعي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة 1429-2008، 2/198.

⁸ الحريري، مقامات الحريري، دار ابن الجوزي، القاهرة مصر، الطبعة الأولى 2015، ص 258-259.

⁹ الحريري، مقامات الحريري، دار ابن الجوزي، القاهرة مصر، الطبعة الأولى 2015، ص 259.

¹⁰ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: علي بوملحم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1424-2004، ص 90/7 و94.

¹¹ "النظام 1 يعمل آلياً وبسرعة، وبجهد قليل أو دون جهد في ظل غياب سيطرة طوعية على عمله. النظام 2 ينقل الانتباه إلى الأنشطة العقلية الجهدية التي تتطلبها، بما في ذلك العمليات الحسابية المعقدة، ترتبط عمليات النظام 2 في كثير من الأحيان بالخبرة الذاتية للفاعل،

والاختيار، والتركيز" دانيال كانمان، التفكير السريع والتفكير البطيء، ترجمة: شيماء الريدي ومحمد طنطاوي، مؤسسة هنداي، القاهرة مصر، الطبعة الأولى 2015، ص 37.

¹² لا أجد شيئاً بهذا المستوى المدهش من الكفاءة الذهنية إلا في مساجد تحفيظ القرآن الكريم بالطريقة المغاربية، حيث يستمع الشيخ لجميع المستظهِرين في ظرف زمني واحد ويصحح لمن أخطأ منهم، مع أنهم يستظهرون مواضع مختلفة من القرآن، أو يفتي لهم كلمات القرآن في وقت واحد وكلهم يكتب موضعاً مختلفاً، ويوجد لذلك مقاطع موثقة، والقريبون من هذا المجال يعلمون أن المحفِّظ في هذا الأداء يستعمل النظام الآلي بدون أي جهد يذكر، وكأن القرآن يتلو نفسه بنفسه مهما كثرت المواضع التي تُتلى في نفس اللحظة..

¹³ "يعتبر ضغط الوقت أحد العوامل الأخرى الدافعة إلى بذل الجهد ... يفرض المعدل الذي تضمحل به المواد في الذاكرة إيقاع العمل، وهو ما يدفعك إلى تنشيط ومراجعة المعلومات قبل فقدانها. يتميز أي تمرين يتطلب الاحتفاظ بعدة أفكار في العقل في الوقت نفسه بالطابع المتسارع ذاته. وما لم يكن حظك وافراً في امتلاك ذاكرة عاملة كبيرة، ربما تُجبر على العمل بجهد بصورة غير مريحة. تتمثل الأشكال الأكثر جهداً للتفكير البطيء في تلك الأشكال التي تتطلب منك التفكير بسرعة" دانيال كانمان، التفكير السريع والتفكير البطيء، ترجمة: شيماء الريدي ومحمد طنطاوي، مؤسسة هنداي، القاهرة مصر، الطبعة الأولى 2015، ص 57.

¹⁴ "أثناء سيرك في دعة مع أحد الأصدقاء، سلُّه أن يُجري عملية ضرب 78×23 في رأسه، وأن يفعل ذلك في الحال. سيتوقف صديقك أثناء سيره في الحال. من واقع خبرتي: يمكنني أن أفكر أثناء السير، لكنني لا أستطيع الانخراط في عمل عقلي يفرض عبئاً كبيراً على الذاكرة قصيرة المدى ... دانيال كانمان، التفكير السريع والتفكير البطيء، ترجمة: شيماء الريدي ومحمد طنطاوي، مؤسسة هنداي، القاهرة مصر، الطبعة الأولى 2015، ص 60.

¹⁵ المراغي، علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة 1414-1993، ص 259 وما بعدها.

¹⁶ ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمد حسب الله وهاشم الشاذلي، دار المعارف، القاهرة مصر، ص 4643.

¹⁷ ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمد حسب الله وهاشم الشاذلي، دار المعارف، القاهرة مصر، ص 4644.

¹⁸ يمكن الاطلاع على الأبيات الاثني عشر كلها في كتاب: ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، اعتنى به: إبراهيم الأبياري وحמיד عبد المجيد وأحمد بدوي، المطبعة الأميرية، مصر، طبعة 1374-1955، ص 238-239.

¹⁹ الحموي، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1993، 1617/4.

²⁰ ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد (مطبوع ضمن: تاريخ بغداد وذيوله)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1417هـ، 159/18. واقتصرت على هذا البيت فقط لأن البيت الذي قبله مروي بثلاث روايات في تاريخ بغداد (الوكفاء) وفي البداية والنهاية (الوكفاء) و(الوكفاء) بحسب اختلاف الطبعتين.

²¹ وهذا المعنى موجود في شعر المدح، كما قال الفرزدق في زين العابدين:

ما قال "لا" قطُّ إلا في تشهده لولا الشهادة لكانت لاؤه نعم

²² هو إسماعيل اليميني المعروف بالمقرئ الزبيدي، كان ذكياً حاذقاً حاد الذهن، وسمع أحداً يذكر بيتي الحريري، فقال: إن تعزيبهما بثالث غير ممتنع، فجحد ذلك بعض الناس وطال بينهما النزاع، فرجع إلى بيته وعمل على هذا النمط توفية خمسين بيتاً، وأرسل بها إلى من جادله، وقال: قد صاروا خمسين بيتاً، وأول أبياته:

مَنْ كلَّ مهدي ودعا أحمداً أجيب، ما أسعد من كلمه

وروي في ترجمته أنه ألف كتاباً سماه (الشرف)، والتزم فيه "أن يُخرج من أواخره ووسطه علوماً غير العلم الذي يخرج من جميعه وهو الفقه ... ومن تأمله رأى فيه ما يعجز عنه غالب طباع البشرية؛ فإنه إذا قرأه القارئ جميعاً وجده فقهياً، وإذا قرأ أوائل السطور فقط وأواسطها فقط وأواخرها فقط استخرج من ذلك علم النحو والتاريخ والعروض والقوافي" الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة مصر، 142/1-143-144.

²³ ساق عدة نماذج أولاً، وانتقدها من ناحية فنية بلاغية، ثم زاد بيتين من تأليفه وإبداعه تفي بالمطلوب، ينظر: أبو عبد الله المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: إحسان عباس ومحمد بن شريفة وبشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الأولى 2012، 50-51-52-53/2.

²⁴ مثل الشيخ نبأ بن محمد بن محفوظ، أبي البيان الدمشقي، الذي جاء في ترجمته: أن له منظومة كاملة في تعزيب بيتي الحريري، ينظر: الحموي، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1993، 2742/3، وذكر أن الداعي له على

- ذلك هو تجرؤ الحريري ومبالغته في الدعوى، ينظر: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، مصر، طبعة 1383-1964، 319/7.
- ²⁵ الحموي، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1993، 2205/5.
- ²⁶ الحريري، مقامات الحريري، دار ابن الجوزي، القاهرة مصر، الطبعة الأولى 2015، ص 292.
- ²⁷ السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر، الطبعة الأولى 1384-1965، 259/2.
- ²⁸ الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، اعتنى به جماعة من المحققين بإشراف د. محمد حجي، نشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط المملكة المغربية، ودار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، طبعة 1401-1981، 155/11 إلى 158.